جهود ابن مريم التلمساني
في
نشر وتقريب العقيدة الأشعرية

د. وسام رزوق

جامعة القرويين

كلية أصول الدين / تطوان ــ المملكة المغربية

الملخص

عرف ابن مريم بمشاركته في علوم عديدة؛ منها العقيدة وعلم الكلام، الذي كان مبرزا فيه، مسهما في نشره، حتى وصف بسنوسي زمانه، غير أن هذا الجانب من ثقافته المعرفية ظل مغمورا، بعيدا عن التعريف به، بسبب أن بعض مؤلفاته العقدية في عداد المفقود، والبعض الآخر صعب المنال، وسنحاول في هذا المقال إبراز جهود ابن مريم التلمساني في نشر وتقريب العقيدة الأشعرية، من خلال الكشف عن بعض تراثه العقدي تعريفا وتوصيفا، وعرض ملامح من معرفته الكلامية الأشعرية.

الكلمات المفتاحية: ابن مريم؛ العقيدة الأشعرية؛ علم الكلام؛ جهود؛ نشر العقيدة.

Abstract :

Ibno Maryam was known for his contribution to numerous sciences, including Aqidah and theology (Ilm al-Kalām) in which he pioneered and helped disseminating. He was even described as Al-Senussi in his time. However, this aspect of his intellectual knowledge has remained buried, unmentioned in his biography because some of his books on Al-Aqidah are lost, while others are hard to obtain. In this article, we will try to highlight Ibno Maryam al-Tlemceni's efforts in disseminating and foregrounding Ash'arism, by revealing some of his Aqidah heritage in terms of definition and description, in addition to displaying a glimpse on his Ash'ari theological knowledge.

Key words*: Ibno Maryam ; Aqidah heritage ; Ilm al-Kalām.*

مقدمة:

الحمد لله المختص بكل وصف جميل، المستحق لكل تعظيم وتبجيل، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد، وعلى آل بيته الطيبين، وصحابته الأكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد: فهذا مقال في التعريف بجهود عالم ألمعيٍّ برع في فنون المعقول والمنقول، الفقيهُ المؤرخ المتكلم أبو عبد الله محمد بن محمد المديوني التلمساني، الشهير بابن مريم، تعريفٌ بجهوده في نشر وتقريب العقيدة الأشعرية، وتلقين أسس الكلام، وقد عُرِفَ ابن مريم عند الباحثين بالمؤرخ الخبير بالتراجم والأعلام، وظلت جوانب من علمه بعيدة عن التعريف، ترنوا إليها النفوس وتتشوَّف، ومنها علم العقيدة والكلام، فقد وصُف الرجل بسنوسيِّ زمانه، دَرَّس العقيدةَ على منهج الأشعرية من أهل السنة، وألَّف فيها التآليف، دون أن يوقف على شيء من ذلك حتى تُعلم مكانته في علوم المعقول، وتبرز جهوده في نشر العقيدة الأشعرية، وإثراء الدرس العقدي.

وقد شاء الله ويسَّر أن أقف على بعض تراثه العقديِّ المخطوط في العقيدة، والذي عرَّف بمكانته، وترجم لدرايته، وقد كان عند كثيرين في حكم المفقود، وبعضه لا يكاد يعرف أصلا؛ إذ من حسنات هذا البحث وجديده أنه عرَّف وكشف عن أول مؤلف مفرد في العقيدة لابن مريم، لم يذكره ابن مريم نفسه ضمن تآليفه، وأخطأ من فهرس لإحدى الخزائن في عنوانه، فبقي طيَّ الإبهام؛ وهو شرحه على العقيدة الحفيدة للإمام السنوسي.

فكان إذا غرضُنا في هذه المقالة، إبراز جهود ابن مريم التلمساني في نشر وتقريب العقيدة الأشعرية، من خلال الكشف عن بعض تراثه العقدي تعريفا وتوصيفا، وعرض ملامح من معرفته الكلامية الأشعرية، كل ذلك بعد تقديم ترجمة مختصرة له.

1 . نبذة مختصرة في ترجمة ابن مريم التلمساني:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن محمد، الملقب بابن مريم، الشريف المليتي نسبا، المديوني أصلا، التلمساني منشأ ومولدا، ودارا[1]، لا تذكر المصادر المعرِّفة به تاريخا لولادته، ويرجح أن تكون في النصف الأول من القرن العاشر، لأن بعض شيوخه توفي في حدود 950هـ. ينتسب ابن مريم إلى أسرة شهرت بتلمسان بالعلم والصلاح، وكانت لها الحظوة والمكانة عند ولاة الأمور.

وقد كانت ظروف التحصيل العلمي متهيئة له؛ فتلقى في بداياته القرآن وعلومه على والده، وثلة من العلماء، ينيفون على العشرة؛ منهم: الشيخ عبد الرحمن بن تاغريبت، والشيخ محمد بن فارس، والشيخ محمد الوجديجي، والشيخ عبد الرحمن الساباني، والشيخ محمد الدرار، والشيخ عثمان بن معرف، والشيخ زيان، والشيخ عيسى بن عبد الرحمن الصميمي، والشيخ محمد العطافي. أما باقي العلوم من فقه وتصوف وعقيدة فقد أخذها عن جم غفير؛ منهم: الشيخ أحمد أبركان الورنيدي، والشيخ أحمد حدوش، والشيخ الهامل الوجديجي، والشيخ محمد أبو السادات المديوني، وابنه محمد الصغير، والشيخ محمد بوزوبع الكناني، والشيخ سعيد المقري، والشيخ عيسى بن سلامة المستغانمي، والشيخ علي بن يحيى السلكسيني، والشيخ يحيى بن عمر وغيرهم[2].

هذا وقد وصف ابن مريم عند مترجميه بأجمل الأوصاف والتحليات؛ وشُهد له بالتفوق في العلوم، ومن ذلك وصف وشهادة تلميذه عيسى البطوئي: "السيد الإمام، الحسن النظام، العالم العلم، القدوة العلامة، المدرِّس المتفنن المصنف؛ شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد، المكنى بابن مريم...الإمام الصوفي الهمام، درة أقرانه، وسنوسي

1 ـ ينظر في مصادر ترجمته: ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق ابن أبي شنب، ص: 5 و314 ، والبطوئي عيسى بن محمد، مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفوز والصلاح، بتحقيق: حسن الفيجيجي، ص: 121. وعادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 292 . 293. و مخلوف، شجرة النور، ص: 296. و الزركلي، الأعلام، ج291/7. وانظر مقدمة "البستان" بتحقيق: عبد القادر بوباية.

2 . يراجع البطوئي عيسى، مطلب الفوز والفلاح مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 1667، ص: 430.

زمانه...ما رأت عيناي قط مثله خَلقا، وخُلُقا، وإنصافا، وحرصا على العلم، ورغبة في نشره، واجتهادا في طلبه، وإدمانا على تلاوة الكتاب العزيز، وتواضعا وخشية، ومودة وصبرا، واحتمالا وحياء، وصدق لهجة، وسخاء وإيثارا، ومواظبة على قيام الليل، وتبحرا في سائر العلوم الشرعية، وحسن إدراك وقوة فهم، وحبا في الخير لجميع المسلمين"[1].

اشتغل ابن مريم بالتدريس ولازمه طيلة حياته بعد أن حل محلَّ أبيه، وتخرج عليه من الطلاب ما لا يأتي عليه الحصر، ونفع الله به وبعلمه، كما نفع بتآليفه؛ إذ لم يشغله التدريس عن التصنيف، وقد ذكر منها إضبارة في آخر كتابه البستان؛ منها: "غنية المريد لشرح مسائل أبي الوليد"، و"تحفة الأبرار" وهو في الوظائف والأذكار، و"فتح الجليل في أدوية العليل"، و"كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد"، و"شرح العقيدة الحفيدة"، و"التعليقة السنية على الأرجوزة القرطبية"، و"شرح مختصر سليمان بن أبي سماحة على الصغرى"، و"تعليق مختصر على الرسالة"، وتأليف في "حديث نبوي وحكايات الصالحين"، و"شرح المرادية للتازي"، و"تفسير بعض ألفاظ الحكم"، و"تفسير الحسام في ترتيب وظيفة التازي وما يحصل من الأجر لقارئها"، و"البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان"، و"فتح العلام لشرح النصح التام للخاص والعام"[2]، وغيرها.

وهذه التآليف بتنوع علومها تكشف موسوعية ابن مريم ومكانته، غير أنها مشعرة أيضا بمدى الغبن الذي لحق هذا العالم الفذ؛ إذ لم ينل حقه في التعريف به، وإبراز جهوده في نشر العلم وبثه، حيث لا يكاد يعرف إلا بكتابه "البستان"، في حين أن العلوم التي كان يُدرِّسها ويوليها آكد عنايته هي علوم العقيدة والفقه والحديث والتصوف...، من أجل ذلك ارتأينا التوسع في التعريف بما وقفنا عليه من تراثه، مع العناية بالجانب العقدي منه؛ وهو المبحث الآتي.

---

1 . البطوئي عيسى، مطلب الفوز والفلاح، (تحقيق: الفيجيجي)، ص: 121 . 122.

2 . أورد ابن مريم هذه المؤلفات آخر كتابه: "البستان" عدا "شرح العقيدة الحفيدة"، ينظر: ابن مريم، البستان، ص: 314.

2 ـ التراث الكلامي لابن مريم التلمساني: تعريف وتوصيف.

اشتغل ابن مريم بتدريس العلوم مدة عمره، وبالقدر نفسه اعتنى بالتأليف فيها حفظا لها، ودواما للانتفاع بها، فوضع أوضاعا في مختلف الفنون، سردنا قبلُ منها إضبارة. ولما أضحت آثار هذه الأوضاع والتآليف مندرسة، معدودة في حكم المفقود، أصبح ابن مريم لا يكاد يعرف في الأوساط العلمية إلا بكتاب: "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، وغلب على كثير من الناس الظن بأن ذروة سنامه في العلوم علمُ التأريخ والأنساب وأحوال الرجال، حتى إذا ما قرأنا قول عيسى البطوئي في حق ابن مريم من أنه كان: "دُرَّة أقرانه وسنوسيّ زمانه"[1]، عددنا ذلك من التحليات والمبالغة في الوصف، والحق بخلاف ذلك؛ فقد كشف ما ظهر من تراثه عن فقيه عالم مبرز في علوم المنقول والمعقول.

وعند النظر في تراث ابن مريم وآثاره في العقيدة والكلام ـ الذي استطعنا إحصاءه ـ، نجده عبارة عن شروح، ويمكن التمييز فيه بين قسمين: الأول شروح لتآليف في العقيدة وعلم الكلام، والثاني شروح لمنظومات زاوجت في موضوعها بين العقيدة والفقه. غير أن الناظم والجامع بينها فيما نحن بصدده ـ أي الكلام ـ أنها كانت معتمد الدرس العقدي في عصره وقطره، فكان البعد التعليميُّ، والتأليف الوظيفيُّ، حاضرين في تصور ابن مريم، واستمرارا لاشتغاله بالتدريس ونشر العلم، وتيسير سبله في أوساط الطلاب، وفيما يأتي تعريف بهذا التراث.

1 ـ "**شرح العقيدة الحفيدة للإمام السنوسي**"؛ هذا الكتاب لم يذكره ابن مريم ضمن تآليفه في آخر كتابه "البستان"، ولا يكاد يعرف عند الباحثين، ولقيمته وأهميته، واعتمادنا عليه في هذه المقالة، لوقوفنا على نسخة مخطوطة منه، يحتاج الأمر منا هنا وقفةً تعريفية وصفية، مع إثبات نسبة المخطوطة لابن مريم، والتنبيه على أخطاء وتقصير في ذكر معطياتها الكوديكولوجية عند من فهرس للخزانة الحاوية لها.

1 ـ البطوئي عيسى، مطلب الفوز والفلاح، ص: 122.

التعريف بمخطوطة الكتاب: توجد نسخة مخطوطة فريدة من شرح ابن مريم على العقيدة الحفيدة للإمام السنوسي بخزانة المسجد الأعظم بوزان، ثالثة مجموع رقمه: 3/1064، تقع في 37 صفحة، من (55/أ) إلى (73/أ)، نسخت على يد محمد بن محمد السويدي المعروف بالفجيجي، وذلك في الرابع عشر من رجب الفرد عام 1082هـ[1]. وهي نسخة جيدة مصححة، كتبت بخط مغربي مجوهر، قابلها الناسخ على نسخة أخرى، بعد أن كتبها من أصل كثير التصحيف[2].

هذا وقد وهم مفهرسا مخطوطات خزانة المسجد الأعظم بوزان عندما عدَّا المخطوطة شرحا على العقيدة الصغرى للإمام السنوسي، في حين أنها شرح على العقيدة الحفيدة؛ فبقي لنا أن نثبت نسبة هذه المخطوطة لابن مريم التلمساني.

نسبة الكتاب إلى ابن مريم: إن المخطوطة الوحيدة التي وجدناها لهذا الكتاب، واضحة في نسبته إلى مبحوثنا؛ إذ جاء في صدرها: "يقول عبيد الله سبحانه محمد بن محمد بن أحمد المديوني"؛ وهي النسبة ذاتها في صدر مخطوطتي كتابيه "فتح الجليل في أدوية العليل"، و "التعليقات السنية على الأرجوزة القرطبية" والموجودتان في الخزانة نفسها، فثبت أن المديوني المقصود هو ابن مريم، وبقي أن نثبت أن المتن عينه هو لابن مريم، ونكتفي في ذلك اختصارا بالإشارات الآتية:

---

1 . لم ينبه مفهرسا مخطوطات المسجد الأعظم بوزان على تاريخ النسخ، ينظر: العمراني بدر، الغازي محمد سعيد، الفهرس الوصفي لمخطوطات خزانة المسجد الأعظم بوزان، ج488/2.

2 . لم يشر المفهرسان إلى هذا التفصيل المهم، الذي يزيد من قيمة هذه النسخة، فاكتفيا بنقل قول الناسخ: "...فمن وقف على هذه النسخة، فليقابلها مع نسخة أخرى جيدة، فإن النسخة المنتسخة منها هذه، كثيرة التصحيف جدا، وله الأجر والسلام"، في حين نجد الناسخ ذكر بعد هذا أنه قابلها؛ فقال: "قد قابلتها جهد الاستطاعة بفضل الله، والله ذو الفضل العظيم...". ينظر ابن مريم، شرح الحفيدة، ص: (73/أ).

ـ اقتباس شيخ الجماعة بفاس محمد بن قاسم جسوس من "شرح الحفيدة" مع نسبته لصاحبه؛ فقال: "زاد المديوني في شرح الحفيدة: ولو كانت التلاوة والقراءة هما كلام الله...هي الصورة بعينها"[1].

ـ وجود نصوص في هذا الشرح مضمنة أيضا في كتابيه: "البستان"، و"فتح الجليل في أدوية العليل"، وذلك وفق صياغة توحي بأن صائغهما واحد[2].

ـ وُرود نسخة أخرى في لائحة خزانة الكتب المولوية بفاس، وقف عليها الأستاذ خالد زهري بعنوان: "شرح المديوني على عقيدة السنوسي المختصرة للنساء والصبيان"[3]. غير أن خالد زهري نسبها إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المديوني (ت.بعد 960هـ)، وليس الأمر كذلك.

سبب التأليف ومنهجه: ألف ابن مريم شرحه على الحفيدة لسببين، الأول: أنه رأى في عصره "كثيرا من النساء والصبيان يحفظونها"[4]، وهذا يدل على استمرار التأثير الكبير لمختصرات السنوسي العقدية في أوساط العامة؛ فأراد تقريب معانيها، وتيسير فهم مضامينها، والسبب الثاني: أنه رأى في "الحفيدة" عقيدة وجيزة "صغيرة الجرم عظيمة النفع"[5].

وقد سلك فيه ـ كما قال ـ "مسلك الإيجاز والاختصار"[6]، معتمدا على أقوال السنوسي، والمبرزين من شيوخه وعلماء الكلام، أمثال شيخه يحيى بن عمر الزواوي، وتلميذ السنوسي محمد بن إبراهيم الملالي، وأبي بكر الخفاف الإشبيلي، والقاضي

---

1 . جسوس محمد بن قاسم،شرح توحيد المرشد المعين، ج531/2، ويقارن بما في "شرح الحفيدة"، ص: 16.

2 . يقارن مثلا ما في "شرح الحفيدة"، ص: 2، بما في "البستان"، ص: 277.

3 . ينظر: زهري خالد، المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية، ج372/2.

4 . ابن مريم، شرح الحفيدة، ص: 1.

5 . المصدر السابق، ص: 1.

6 . نفسه، ص: 1.

الباقلاني، ومحمد بن يحيى المغراوي، والفخر الرازي، وأبي عبد الله القرطبي المفسر، والآمدي وغيرهم، وأوضح منهجه في الاقتباس منهم فقال: "...انتقيته (الشرح) من كلام شيخنا، وبركاتنا، ووسيلتنا إلى ربنا؛ سيدي محمد بن يوسف السنوسي ـ رحمه الله ـ، وما وجد من كلام غيره نسبته لقائله"[1]، وكان منهجه في التأليف فريدا؛ إذ يسوق عبارة "الحفيدة" بعد أن يرمز لها بـ: "ص" (المصنف)، ويتبعها بشرح وجيز منتقى من كلام السنوسي في مؤلفاته، ويرمز له بـ: "ش" (الشارح)؛ ثم بعد ذلك يدلي بدلوه في توضيح بعض المعاني، جلبا لفائدة أو نكتة زائدة، وهنا قد يورد أقوالا لعلماء آخرين غير الإمام السنوسي.

هذا وقد أولى ابن مريم في شرحه عناية خاصة بالحدود الكلامية، بما يكشف عن معرفته بالمنطق وبراعته فيه، فكان لا يدع حدا إلا أوضحه وبينه، وقد يناقش بعض العلماء في ما ذهبوا إليه من تعريفات يراها غير مانعة أو غير جامعة على ما نبينه بعدُ.

وتأتي أهمية هذا الشرح في كونه يكشف عن معرفة ابن مريم الكلامية من جهة، ومن جهة أخرى يقيس مستويات الدرس الكلامي، على اعتبار أن ابن مريم في بداية شرحه عبَّر بما يفهم منه ضعف الإقبال على العلوم العقلية؛ وأن همم الناس في زمانه قاصرة عن الإكثار والتعمق فيها، الشيء الذي دعاه إلى الاختصار والإيجاز بما يتناسب مع واقع الدرس العقدي الكلامي. كما يقدم لنا الشرح تقريرات لبعض شيوخه، أخذها عنهم في مجالس الدرس والإقراء، ونصوصا غميسة لأشعريين مبرزين؛ كالباقلاني، والخفاف الإشبيلي، وأبي عمران الزناتي وغيرهم.

2 ـ "**فتح الجليل في أدوية العليل**"؛ وهو شرح للمنظومة الفقهية المشهورة بـ "نظم مقدمة ابن رشد" لعبد الرحمن السنوسي المعروف بالرقعي (859هـ)[2]، ألفها بطلب من

1 . نفسه، ص : 1.

2 . له نسخ عدة في المكتبات المغربية؛ منها نسخة المكتبة الوطنية رقم: 618د، ونسخة المسجد الأعظم بوزان رقم: 1104، ونسخة بجامع ابن يوسف بمراكش رقم: 167، ونسخ أخرى بخزانة المسجد الأعظم بتازة أرقامها: 4/333، 2/372 و373.

بعض أصحابه من طلبة العلم، وتضمنت هذه المنظومة مقدمة عقدية من اثنين وثلاثين بيتا، شرحها ابن مريم فيما يقرب من أربعين صفحة، قال عن أسلوبه في تأليفها: "جمعته فجاء بحمد الله تقييدا جليلا، أعفيته من الإسهاب والتطويل، وسهَّلته على المتعلم غاية التسهيل، وأوضحته بواضح التعليل، وصحَّحت ذلك بما يحصل به شفاء العليل...سلكت في ذلك طريق الإيجاز والاختصار، لما رأيت من قصور [عن] الإكثار، ولما أنا فيه من شغل البال في أمر الدنيا لا في أمر المآل، مع ما كلِّفت من تعليم الصبيان"[1].

وقد كشف أسلوبه في شرح المقدمة العقدية لهذا النظم عن براعة في تقريب قضايا العقيدة، وتذليل صعبها، وتيسير فهمها، فكان والحق كما قال، سهلا على المتعلم، قريب المرام.

3 ـ "**التعليقة السنية على الأرجوزة القرطبية**"[2]؛ وهو شرح على أرجوزة الولدان لأبي زكرياء يحيى بن عبد الله القرطبي، نظم فيها الفرض والمسنون من أمور الدين، وقد جاء شرح ابن مريم لمقدمتها العقدية في 17 صفحة بمقياس 29 سطرا، ألفها بإلحاح من بعضهم، ولأجل رؤيته إقبال الصبيان والشيوخ عليها، وانتفاعهم بها، مما يبرز الحضور الدائم للمقصد التعليمي في تآليف ابن مريم، ويؤكده طريقة شرحه البعيدة عن الغوص في عويص المسائل العقدية والكلامية، يقول في مستهل شرحه هذا: "أيها الأخ المحب في الله وفي رسوله، فإنك سألتني أن [أوضح] لك مضمون أرجوزة الشيخ أبي زكرياء يحيى بن عبد الله القرطبي؛ إذ هي صغيرة الجرم، عظيمة الفائدة، وضعها للصبيان الصغار، وقد انتفع بها شيوخ كبار...وقد رأيت كثيرا من الصبيان يحفظونها في المكاتب، وقد كثر النفع بها في المشارق والمغارب، ولما تكرر منك السؤال، وتعين الجواب على كل حال، صرفتُ عنان العناية إلى حل ألفاظها المعقودة، والكشف عن معانيها المرموزة، مع علمي أن من ألف قد استُهدف، فإن أحسن استعطَف، وإن أساء فقد استُقذِف..."[3].

1 . ينظر مخطوط خزانة المسجد الأعظم بوزان رقم: 1104، ص: (2/أ)

2 . منه نسخة بخزانة الجامع الأعظم بوزان رقم 3/1134.

3 . ابن مريم، التعليقة السنية على الأرجوزة القرطبية، ص: (103/ب).

نشير هنا إلى أن ابن مريم نسب المقدمة القرطبية المعروفة أيضا بـ "أرجوزة الولدان في الفرض والمسنون"، إلى أبي زكرياء يحى بن عبد الله القرطبي، وهو مجهول عنده، لم يقف له على ترجمة، رغم بحثه الطويل، قال: "أخبر الناظم أن اسمه يحيى بن عبد الله...ولم أقف على التعريف به بعد البحث عليه، ولا في أي وقت كان، غير أنه كان بعد عياض وابن العربي؛ لنقله في هذه الأرجوزة عنهما"[1]، لكن المتداول بين الباحثين أنها لأبي بكر يحيى بن عمر بن سعدون (ت.567هـ)، وذلك تبعا لما ذهب إليه الأستاذ حسن زقور الذي حققها بشرح الشيخ زروق، وعند التحقيق لا نجد الأستاذ حسن أثبت نسبة النظم لأبي بكر يحيى بن عمر بن سعدون، وقد بنى تقديمه لشرح زروق كله على هذه النسبة، وجانب الصواب عندما قال: "أجمعت كل المصادر على أن اسم ناظمها هو الشيخ يحيى بن عمر بن سعدون القرطبي"[2]؛ لأن المجمع عليه حول هذه المنظومة أنها ليحيى القرطبي، وهذا لا يعني بالضرورة أنه يحيى بن عمر بن سعدون.

من أجل ذلك كله نميل إلى ما ذهب إليه ابن مريم الذي كان أكثر تحقيقا وتدقيقا؛ وهو العالم بالتراجم والتواريخ لما قال: "...فإنك سألتني أن أوضح لك أرجوزة الشيخ أبي زكرياء يحيى بن عبد الله القرطبي"[3].

4 ـ "**شرح على مختصر الصغرى**"، والمختصر للفقيه سليمان بن أبي سماحة، وضعه للنساء والعوام. ولعل هذا التأليف يشتبه بشرح الحفيدة المذكور قبلُ، ورغم أننا لم نقف على مختصر أبي سماحة هذا إلا أن النص المشروح في التأليف الأول هو نص الحفيدة والموسوم أيضا بـ: "صغرى صغرى الصغرى" مع اختلاف يسير جدا، ولا يمكن بحال أن يكون اختصار أبي سماحة للصغرى يقرب من الحفيدة إلى هذا الحد وإلا لم يكن هناك جديد في صنيعه، وبقي التأليف في كل الأحوال تصدق عليه التسمية بـ : "شرح الحفيدة".

---

1 . المصدر السابق، : (94/ب)

2 . زروق أحمد، المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي...بشرح العلامة الزاهد الشيخ أحمد زروق، : 68.

3 . ابن مريم، التعليقة السنية على الأرجوزة القرطبية، : (93/ب).

5 ـ "**كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد**"؛ وهو شرح على العقيدة الكبرى لمحمد بن يوسف السنوسي، في عداد المفقود، ولو حصِّل لكشف أكثر عن عمق المعرفة الكلامية لابن مريم، لأن هذا محل بسط، ويدل عليه أيضا عنوان الكتاب.

6 ـ "**تعليق مختصر على الرسالة في ضبطها وتفسير بعض ألفاظها**"، والمقصودُ رسالةُ ابن أبي زيد القيرواني، وقد أوردناه هنا ضمن تراثه العقدي لاحتمال تطرقه إلى شرح وتوضيح مقدمتها العقدية. ويبقى هذا التأليف في عداد المفقود أيضا.

3 ـ ملامح من معرفته الكلامية الأشعرية.

من خلال وقوفنا على بعض التراث العقدي المخطوط لابن مريم التلمساني، يمكن إبراز ملامح من معرفته الكلامية، ومنهجيته في التأليف العقدي، نجملها كالآتي:

أ ـ حرصه على الاختصار وتيسير العبارة، والاقتصار على ما لابد منه لفهم المسألة العقدية، فنجده لا يستحضر الخلافيات، أو يعتني بتفريع المسائل، ولا يذكر الاعتراضات إلا لماما، وإنما غايته الأساس خدمة النص شرحا وإفهاما بما يرفع غموضه، ويفك مبهمه، ولا ينجر إلى الاستطرادات إلا نادرا جدا، وإذا فعل نبه على ذلك؛ كقوله: "فقد انجر بنا الكلام حتى خرجنا عن المقصود"[1] وهذا منهج تعليمي محض، يريد به ابن مريم ـ وهو الذي نذر حياته للتعليم ـ أن يوطِّئ لنشر العقيدة الأشعرية، وتدليل الصناعة الكلامية في أوساط الطلاب، خصوصا وقد فهم من بعض هذه التآليف ضعف الإقبال في زمنه على العلوم العقلية.

ب ـ مصادره في التأليف العقدي: رغم أن ما وصلنا من تراث ابن مريم العقدي صغير الجرم، إلا أنه كشف عن غنى مصادره في التأليف الكلامي وتنوعها؛ فقد اعتمد إضافة إلى كتب الإمام السنوسي على كتب القاضي الباقلاني، وأبي حامد الغزالي، وسيف الدين الآمدي، وفخر الدين الرازي، وأبي بكر الخفاف الإشبيلي، وأبي عمران الزناتي، ومحمد بن يحيى المغراوي، وشهاب الدين القرافي، وأبي عبد الله الخزرجي

1 . ابن مريم، شرح الحفيدة، ص: 11.

القرطبي، والقاضي ابن العربي المعافري، والإمام الرصاع، وابن راشد القفصي، وشيخه يحيى بن عمر الزواوي وغيرهم.

هذا وكان ابن مريم أحيانا ينقل من حفظه، أو مما قيده في مجالس إقراء شيوخه، فيأتي بالفوائد ونكت المسائل، ومن ذلك نقله عن شيخه يحيى بن عمر، قال: "وكان سيدي يحيى بن عمر يقول: "ولعل الفخر الذي يقول: 'العلم بالكبرى ضروري'[1]، يستدل بالحدوث فقط؛ لأنه إذا تحققوا أنه طرأ بعد أن لم يكن، حصل العلم الضروري، فإنه لابد من مكون، والله سبحانه أعلم"[2]. وقوله: "وكان سيدي يحيى بن عمر يقول: "حدوث الإله ـ يتعالى ويتحاشى عن ذلك علوا كبيرا ـ محال من وجه آخر؛ لأنه يلزم عليه اتحاد الدليل والمدلول؛ إذ لو كان حادثا لكان من جملة العالم، وحدوث العالم دليل على وجود الصانع، وليس هنالك فاعل سواه، فقد اتحد الدليل والمدلول![3]"[4].

وأيضا إيراده ـ من حفظه ـ نص اعتراض لابن أبي جمرة على حصر المخلوقات في الأجرام والأعراض، وقال عقبه: "وأتى هنالك بكلام حسن، وقد طال عهدي به، ومن أراده فلينظره في شرحه للحديث والله الموفق"[5].

وقد ظهرت شواهد دلت على أن ابن مريم حاز مكتبة تضمنت نوادر من كتب العقيدة، فقد أفاد من أجوبة الخفاف الإشبيلي الكلامية؛ وهي الأجوبة التي حققت اليوم على نسخة فريدة[6]، ونسب له نصوصا ليست في باقي تراثه العقدي الموجود[7]، والذي

---

1 . يريد القضية الكبرى في القياس المنطقي؛ وهي التي قال الرازي إن العلم بها مركوز في فطرة البهائم، وطبائع الصبيان. ينظر: الرازي فخر الدين، معالم أصول الدين، ص: 27.

2 . ابن مريم، شرح الحفيدة، ص: 24.

3 . يريد: لو كان هناك فاعل سوى الله تعالى لاتحد الدليل والمدلول.

4 . ابن مريم، شرح الحفيدة، ص: 27.

5 . المصدر السابق، ص: 19.

6 . ينظر بتحقيق عبد الله التوراتي، ط: 1، 2019م، دار الحديث الكتانية.

7 . نريد شرح الخفاف على برهانية السلالجي، وشرحه على عقيدة الرسالة.

بقي مفقودا منه شرحه على إرشاد الجويني. كما ساق نصا غميسا للباقلاني شرح فيه سورة الإخلاص[1].

ج ـ عنايته بشرح الحدود والاصطلاحات الكلامية: لما كانت الحدود والاصطلاحات مفاتيح منغلق أي فن من الفنون، فقد اعتنى ابن مريم ببيانها في شروحه للمتون العقدية بالقدر الذي يحقق به مقصده في رفع الإبهام، وتوضيح قضايا الاعتقاد، من ذلك قوله: " **اِعلم** أنه لا بد عند المتكلمين من التمييز بين الصفة، والموصوف، والاتصاف، والوصف، والواصف؛ فالصفة: المعنى القائم بالذات. والموصوف: من قام به المعنى. والاتصاف: قيام المعنى به. والوصف: هو الخبر عن قيام الصفة بالموصوف، وإن شئت قلت: هو قول الواصف. والواصف: هو المخبر بذلك[2].

وقد يناقِش ابن مريم بعضا من هذه الحدود بما يكشف عن حِسِّه النقدي، ومن أمثلة ذلك نقده لتعريف أبي الحسن الأشعري للحدوث، قال: "وحقيقة الحدوث: قال أبو الحسن الأشعري: "وجودٌ مسبوقٌ بعدم"؛ وهو صفة؛ وهذا الحد يرد عليه العدم الطارئ، فإنه حادث قطعا، ولا يصدق عليه التعريف؛ إذ العدم ليس بوجودي بالضرورة، وكذلك الأحوال"[3]. بعد ذلك ذكر ما يرتضيه حدا؛ وهو حدُّ شيخه يحيى بن عمر، فقال: " قال سيدي يحيى بن عمر: "الحد الصحيح أن يقال: طروٌّ مسبوق بنقيضه، وأن العدم الطارئ مسبوق بنقيضه الذي هو الوجود، وكذلك الأحوال طارئة. وأما العدم السابق فيما لا يزال فليس بحادث؛ لعدم طريانه، وليس بأزلي، وإنما يقال فيه: ممكن"[4].

ورغم حرص ابن مريم على تجنب التعمق في شرح مسائل العقيدة، إلا أن عنايته بالحدود والاصطلاحات جعلته أحيانا يوغل في تفاصيل منطقية، كشفت عن إلمامه الواسع بعلم المنطق، وإتقانه العلوم العقلية، ونمثل لذلك بنص قال فيه: " والمراد بالضد

1 . منه نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس رقم : 14654.

2 . ابن مريم، شرح الحفيدة، ص: 9.

3 . المصدر السابق، ص: 18.

4 ـ المصدر السابق، ص: 18.

هنا الضد اللغوي؛ وهو عبارة عن كل مناف. وأنواع المنافاة على ما تقرر في **علم المنطق أربعة:** تنافي النقيضين، وتنافي العدم والملكة، وتنافي الضدين، وتنافي المتضايفين. فكل نوع من هذه الأنواع الأربعة لا يمكن الاجتماع فيه بين الطرفين. أما النقيضان: فثبوت أمر ونفيه؛ كثبوت الحركة ونفيها. وأما العدم والملكة: فهما ثبوت أمر أو نفيه عما من شأنه أن يتصف به؛ كالبصر والعمى مثلا، فالبصر وجودي؛ وهو الملكة، والعمى نفيه عما من شأنه أن يتصف به؛ ولهذا لا يقال في الحائط: أعمى. وبهذا فارق هذا النوع النقيضين، فإن كلا من النوعين وإن كان هو ثبوت أمر أو نفيه، لكن النفي في تقابل العدم والملكة مقيد بنفي الملكة عما من شأنه أن يتصف بها، وفي النقيضين لا يتقيد بذلك.

وأما الضدان: فهما الأمران الوجوديان اللذان بينهما غاية الخلاف، ولا تتوقف عقلية أحدهما على عقلية الآخر؛ فقولنا: الأمران؛ جنس. وقولنا: الوجوديان؛ فصل أخرج به النقيضان، والعدم والملكة. وقولنا: اللذان بينهما غاية الخلاف؛ فصل أخرج به المثلان، فإن حقيقتهما واحدة. وقولنا: ولا تتوقف عقلية أحدهما على عقلية الآخر؛ فصل أخرج به المتضايفان.

وهو ينقسم إلى ضدية الشرط، وضدية المثل، وضدية المحل، وضدية التعلق. أما ضدية الشرط فستأتي، وضدية المثل؛ كالبياض مع البياض، فإنهما لا يجتمعان؛ إذ لو اجتمعا للزم عليه ضدية المحل، إذ من الجائز أن يرتفع أحد البياضين ويخلفه ضده الذي هو السواد؛ وهذه ضدية المحل..."[1].

وقد وقف ابن مريم طويلا عند هذه المفاهيم المنطقية؛ لتوضيحها وبيان أقسامها، متوسلا بمعرفته الواسعة، وإتقانه لفن المنطق، وأوردنا هذا المقتطف من كلامه ليقف القارئ على ذلك، وتتضحَ له مكانة هذا العالم الفذ في علوم المعقول؛ على اعتبار أن هذه النصوص مستجدة، وَثَّقْناها من مؤلفاته التي كان المختصون في تراث ابن مريم

---

1 . نفسه، ص: 20 . 21.

يعتبرونها في عداد المفقود، بل وفيها مؤلف لم يذكره له أحد من الباحثين، ولا ذكره هو نفسه في جرده لمؤلفاته آخر كتابه "البستان"؛ وهو شرحه لحفيدة الإمام السنوسي.

د ـ مزاوجته في الاستدلال على القضايا العقدية بين الأدلة العقلية والأدلة النقلية، مع اعترافه بقصور العقل عن الإحاطة بجملة من القضايا، والتي تستدعي اعتقادَ التنزيه والتوقفَ عن الخوض فيها لأنها لا تدرك بموازين العقول، وقد يؤدي البحث فيها إلى شرك وكفر، يقول مجيبا عن سؤال:" فإن قال قائل: الله تعالى داخل في الأشياء، أو خارج منها؟ فإن قلت: داخل فيها؛ فإنه من جملة العوالم، وإن قلت: خارج منها؛ كان في جهة للعوالم.

فالجواب أن تقول: ليس داخل في الأشياء، ولا خارج منها، ولا فوقها، ولا تحتها، ولا عن يمينها، ولا عن شمالها، ولا من أمامها، ولا من خلفها، والعجز عن الإدراك إدراك، والبحث فيه كفر وإشراك"[1].

هـ . نماذج من تعليقاته ونقده، وآرائه واختياراته العقدية:

ـ تعليقه على قول ابن حبيب والحكم بن عيينة إن قواعد الإسلام شرط في صحة الإيمان، وتكفيرهم من ترك شيئا منها رغم إقراره بالوجوب، قال: "والصحيح التفصيل؛ فأما الشهادتين فواجبة على القادر باتفاق، ثم إن ترك، فإن كان عنادا فكفر إجماعا، وإن كان بغير ذلك فثلاثة أقوال: إن كان الترك لمانع كاخترام المنية أو الإكراه، فإيمانه صحيح، وإلا فلا. وأما الصلاة؛ فأكثر المحدثين مع أقل العلماء، يقولون: تاركها كافر؛ لقوله عليه السلام: (بين الكفر والإسلام الصلاة، من ترك الصلاة فقد كفر)، رواه مسلم، وأكثر الفقهاء مع أقل المحدثين يقولون: عاص بتركها، ويتأولون الحديث، فالجاحد لوجوبها أو وجوب شيء من القواعد كافر بإجماع، وتارك باقي القواعد مع توجه وجوبها

---

1 . نفسه، ص: 11.

مع اعترافه بالوجوب مؤمن عند كافة فقهاء الأمصار، وعلماء الاسلام، إلا من ذكر قوله؛ وهو ضعيف"[1].

ـ أول واجب على المكلف: بعد أن ذكر ابن مريم في شرح القرطبية مختلف الأقوال في المسألة اختار رأي إمام الحرمين في الإرشاد؛ وهو القصد إلى النظر، فقال: "أصح المذاهب مذهب إمام الحرمين"[2].

ـ مخالفته مذهب الإمام السنوسي في صفتي السمع والبصر: على الرغم من تأثر ابن مريم الكبير بالسنوسي، واعتماده على كتبه، إلى درجة أنه وصفه بشيخه رغم عدم معاصرته له، فإن ذلك لم يمنعه من مخالفته في قضية تعلقات صفتي السمع والبصر، فبينما يرى السنوسي أن السمع صفة ينكشف بها الموجود على ما هو به انكشافا يباين سواه، وأن البصر مثله[3]، يرى ابن مريم خلاف ذلك، فأشار إليه في "شرح الحفيدة"، وصرَّح به في "التعليقة السنية في شرح القرطبية"، فأورد في الكتاب الأول اعتراض شيخه يحيى بن عمر على عدم التمييز بين التعريفين فقال: "قال سيدي يحيى بن عمر: "ويلزم الدور على هذا الحد؛ لأن كل واحد حده في حد الآخر، فيتوقف معرفة كل واحد منهما على الآخر؛ وهذا هو عين الدور"[4]، غير أنه هنا التزم أن يشرح كلام السنوسي على وفق مذهبه، لذلك ساق اعتراض أحدهم على تعلق السمع بغير الأصوات من الموجودات، فقال: "فإن قلت: كيف يتعلق السمع بغير الأصوات من سائر الموجودات؟ وما الدليل على ذلك؟ فالجواب: أن يقال: الدليل على وجوب تعلق السمع بكل موجود النقل والعقل. أما النقل..."[5].

1 . ابن مريم، التعليقة السنية في شرح القرطبية، ص: (96/ب).

2 . المصدر السابق، ص: (97/ب)

3 . السنوسي محمد بن يوسف، شرح العقيدة الصغرى، ص: 56.

4 . ابن مريم، شرح الحفيدة، ص: 14.

5 . نفسه، ص: 14. والكلام نقله ابن مريم من "شرح الصغرى" للملالي تلميذ السنوسي، ولم يصرح بذلك، ينظر: الملالي محمد، شرح أم البراهين، ص: 62.

أما في "شرح القرطبية" فقد صرح بالقول بتعلق السمع بالسموعات، وبتعلق البصر بالمبصرات؛ فقال في تعريف السمع: "هو عبارة عن صفة ينكشف بها كمال الصفات المسموعات"[1]، وقال في تعريف البصر: "هو عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوث المبصرات"[2]، ففهمنا من هذا أنه في شرح الحفيدة توقف عند مذهب السنوسي لأنه يشرح كلامه، أما في شرح القرطبية فقد أفصح فيه عن مذهبه.

ـ القول في الإيمان: يرى ابن مريم أن الإيمان هو التصديق، وأن العمل كمال فيه، فإذا لم يعقب التصديق القلبي عمل عُدَّ عصيانا لا يخرج صاحبه من الملة، كما يرى أن المنافق أو الزنديق هو المقر بلسانه دون التصديق القلبي والعمل بالجوارح، يفهم ذلك من قوله: "الواجب على العبد أن يعتقد بقلبه، وينطق بلسانه، ويعمل بجوارحه؛ فهذا هو المؤمن الكامل الإيمان، وإذا صدق بقلبه، ونطق بلسانه، ولم يعمل بجوارحه؛ فهذا مؤمن عاص بترك العمل، وإذا نطق بلسانه ولم يعتقد بقلبه، ولم يعمل بجوارحه؛ فهذا منافق في زمان النبوة، زنديق في زماننا"[3].

ـ توجيهه لمعنى الكلمة المشرَّفة: قال رحمه الله في شرح "لا إله إلا الله": "أي لا خالق ولا موجود في الوجود حقيقة إلا من هو منزه عن النقائص، موصوف بصفات الكمال؛ هو الله وحده الذي هو خالق العالم بأسره. وإن شئت قلت في معنى لا إله إلا الله: هو المستغنى عن كل ما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه إلا الله؛ وهو قريب من المعنى الأول، ولا يقال: إن معنى الله كمعنى الإله، فيلزم استثناء الشيء من نفسه، ويلزم أيضا ألا يحصل توحيد من هذه الكلمة المشرفة، بل كل واحد منها بمعنى؛ وذلك أن معنى الإله: الخالق، ومعنى الله: أي المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال"[4].

1 . ابن مريم، التعليقة السنية في شرح القرطبية، (98/أ).
2 . المصدر السابق، (99/أ).
3 . ابن مريم، فتح الجليل في أدوية العليل، ص: (5/ب).
4 . المصدر السابق، ص: (5/ب).

ـ قوله في صفتي القدم والبقاء: اختيار ابن مريم في صفتي القدم والبقاء أنهما صفتان سلبيتان، فضعَّف قول من يقول إنهما صفتان نفسيتان، أو إنهما صفتان وجوديتان تقومان بالذات كالعلم والقدرة؛ فقال: "القدم والبقاء في حق الله تعالى...صفتان سلبيتان؛ فهذا هو المختار عند المحققين، وقيل: هما صفتان نفسيتان؛ وهو **ضعيف**، لأنه لو كانتا نفسيتين لزم ألا تعقل الذات بدونهما، والفرض أن الذات نعقل وجودها، ثم يطلب الدليل على وجوب قدمها وبقائها. **وأضعفها** من قال: إنهما صفتان موجودتان تقومان بالذات كالعلم والقدرة؛ لأنه يلزم عليه أن يكون القدم والبقاء قديمة أيضا بقدوم آخر موجود، وباقيين ببقاء آخر موجود. ثم ننقل الكلام إلى هذا القدم الآخر، والبقاء الآخر فيلزم فيهما ما يلزم في الأولين، ويلزم التسلسل. **وأضعف هذه الأقوال** قول من فرَّق بين القدم أنه صفة سلبية، والبقاء صفة وجودية..."[1].

خاتمة:

لقد قدمنا تعريفا مقتضبا لبعض تراث ابن مريم الذي لم يسبق أن عُرِّف به، بعضه تأليف مستقل مفرد في العقيدة والكلام، وبعضه الآخر جمع فيه بين العقيدة والفقه، وقد كشف هذا التراث ـ على اختصاره الكلام فيه ـ عن شخصية كلامية فذة، تمكنت من ناصية العلوم العقلية والمنطقية، فتأهلت لتدريس العقيدة الأشعرية وتيسير فهمها، وألفت فيها بأسلوب تعليمي يتأتى معه الفهم والإفهام، حريص على إبلاغ المقصود دون الغوص في الخلافيات، ودقائق المسائل، وذلك أدعى إلى زيادة الإقبال على علوم العقيدة، وتحفيز الطلاب إلى الجد فيه وتحصيله، ولا شك أن هذه الجهود من ابن مريم رحمه الله ساهمت في نشر العقيدة الصحيحة، وتثبيت الأشعرية في تلمسان وغيرها من البلدان.

قائمة المراجع والمصادر:

1 ـ الزركلي خير الدين، الأعلام ، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 15، 2002م.

1 . نفسه، ص: (6/أ).

2 ـ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1326هـ/1908م.. وأيضا تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 2013م.

3 ـ ابن مريم،التعليقة السنية على الأرجوزة القرطبية، مخطوط المسجد الأعظم بوزان، رقم: 3/1134.

4 ـ مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ.

5 ـ السنوسي محمد بن يوسف، شرح العقيدة الصغرى، تحقيق: محمد صادق درويش، دار البيروتي، دمشق، ط: 3، 1430هـ/2009م.

6 ـ جسوس محمد بن قاسم، شرح توحيد المرشد المعين، تحقيق: وسام رزوق، أطروح دكتوراه مرقونة بكلية أصول الدين تطوان، المغرب.

7 ـ الملالي أبو عبد الله محمد، شرح أم البراهين، تحقيق: خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 3، 2017م.

8 ـ ابن مريم، شرح العقيدة الحفيدة، مخطوط المسجد الأعظم بوزان، رقم: 3/1064.

9 ـ ابن مريم، فتح الجليل في أدوية العليل، مخطوط المسجد الأعظم بوزان، رقم: 1104.

10 ـ العمراني بدر، الغازي محمد سعيد، الفهرس الوصفي لمخطوطات خزانة المسجد الأعظم بوزان، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط: 1، 1329هـ/2008م.

11 ـ زهري خالد، المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية، منشورات مركز أبي الحسن الأشعري/الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ط: 1، 1438هـ/2017م.

12 ـ البطوئي عيسى بن محمد، مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفوز والصلاح، تحقيق: حسن الفيجيجي، مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط: 1، 2000م.

13 ـ البطوئي عيسى بن محمد، مطلب الفوز والفلاح، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 1667.

14 ـ زروق أحمد، المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي...بشرح العلامة الزاهد الشيخ أحمد زروق، تحقيق: حسن زقور، دار ابن حزم/دار التراث، الجزائر، ط: 1426هـ/2005م.

15 ـ الرازي فخر الدين محمد، معالم أصول الدين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب، بيروت (د.ت).

16 ـ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط: 2، 1400هـ/1980م.